

O. 07-08

فَقَدْنَا المكتبة:

لكن ما من سبيلٍ سوى الاستثمار

دعاء خليفة 

للأحجار أن تنأى، ولها حرّية النسيان. أن تكفَّ
عن الالتفات، وتهوي إلى محيطها دون بيان. وفي
لجّة الموج الأخيرة من حاضر أيامي، وجدّتي
أنأى عن الآخرين، وأغيب عن بال الجميع بألفةٍ
عهديّتها ذات غوص، وليس يلفتني غريق. أفتش في
زوايا النفس عن ظلمةٍ تُعينني على ألفةٍ أن أقرّ إلى
قاعٍ جليد.

يوديات

اللوحة من أعمال الفنان: عبادة جابر

ننسى تلك المدن التي تستعصي فيها أيّ قراءة، لا لانشغالٍ بالحياة وناسها، بل لطبيعةٍ فيها تنفيك عن ذاتك، فلا تجد للقراءة مستطاعاً.

وفي أول النزوح، تخلفت عني الكتب في رفوفها، لم أكن أنوي يوماً هجرانها، لكن قلقي تحت وابل الرصاص عصمها من مشقة الرحيل. وها أركن في مقامي هذا على جانب الطريق، ترسم رؤى الحروف على وجهي الغابر، بينما تطلُّ كتبتي هناك على حالها، لا يمسّها هُوب الأيام. والحال كهذه، كان عليّ أن أختار رفيق دربي المحفوف برائحة البارود وجثث عتاد معارك مُلقى على جنبات الطريق. احتججتُ إلى أقربهم مني كلمة، غير أنّ الاختيار وقع على ديوان والت ويتمان. خطر لي جلد ويتمان واحتماله لمشاق المسير ولم أنتبه إلى أنسه. احتججتُ إلى من يُربّت على خوفي بالكلمة أياً تكن. لم أكن لأقوى على التضحية بمن هم أرقّ من أوراق عشبه الخضراء إذا ما سلبوا من يدي، سوى أنها نجّت من حصة رهائن المليشيا. أتأمل لحظة تسمري أمام رفوف المكتبة، وتصوّري بأن لي حرية الاختيار، وأخي يناديني من بعيد يحثني على الاستعجال. أعصّ شفتي تهكماً؛ أيّ منطق هذا الذي يتولد مع غياب اليقين بالخطوة التالية في الحياة. ويمرّ جون كيتس بخاطري.

غير أنّ النزوح كلمةٌ استقت جدرها من هذه الأرض، فالأصل في الناس هنا الارتحال،

وإذ فقدتُ مكتبتي المنزليّة الصغيرة، أكون فقدتُ مساحاتٍ وأزمنةً افترشتُ فيها كُتبي على امتداد سنّي طفولتي، والمرحلة الجامعية وما تلاها. كُتب لامتّتها سماتُ الأمكنة؛ العين الحارّة لـ «جبل حَفيت» في مقابل شلالات جبال إيران المكسوّة بالثلج، ومن رعونة كوالالمبور في مقابل وداعة كوانتان، ومن أزقة الخرطوم المُغلقة على ذاتها مُقابل حارات أم درمان المُفتحة على غيرها، ومن زخم دبي في مقابل تروي أبوظبي، وكتب مهداة من أستراليا القصيّة وضباب لندن الجلف، في مقابل عفوية القاهرة الدانية. كتب رافقتني في مُدن قطنتُ فيها لسنواتٍ وأخرى كنتُ ضيفاً عليها. ويتّضح لي الآن من هذه المسافة الفاصلة بيننا مدى تأثير البيئة على اختياراتي في القراءة؛ حيث كنتُ أزعم أنّ هشاشة الواقع لا تأثير لها على ذائقتي القرائية. فلأماكن جُوها كما للكتب أمرجتها. ما تقرؤه وأنت تسكن عالياً في الجبل، وتُحيط بك الحياة البريّة، لا يُشبه ما تقرؤه وأنت بجانب البحر في أرض ساحليّة مُنبسطة. وما يشدُّك من خفة كتبٍ في مدينة يسبق ليلها النهار، يختلف عن تلك الدسمة وأنت في بلدة نائية تُمهّل الأيام أياماً. وإنّ للغة المحيطة بك تأثيراً آخر؛ إذ تنتبه لافتقارك لغةً ما أهملتها لسنوات فتبحث عن كتبٍ رغبةً في اللّغة دون أن تُولي كثير اهتمام بموضوعاتها، وتُرجئ تلك التي نويتَ مباشرتها في قادم أيامك إلى أجلٍ بعيد. ولا


وتُعبد لحم اللغة بما يعينها في لامبالاة فاترة. أتَهجِّي كلمات المدينة لتُغطي على كلماتي وإذ أتلعثم مرّةً بها، أنادي غسقاً يُطلُّ على غسقي، ولا أجد لصوتي صدىً. يتراءى لي كلُّ هذا الفقد، مُتثائراً حولي، سوى أنّ لي ذاتي إلى حين.

في مُقابل هذا الفقد اللغويّ، وفي عزلةٍ خَلَّتْها تخلو من الكلمات، انفتحت لي كُوةٌ في جدار ذاكرتي. أستدعي منها روايات نسيتُ ما خَطَطْتُه على هوامش صفحاتها، وشخصيات ولِعتُ بها حتى صادقتني فترة من العمر، وأبياتاً من قصيدة ملحمة تعثرتُ عن إتمام قراءتها توقظني من سباتي، وحين ذهابي لتفقدتها، أجدني وقفْتُ على العتبة، في ما قبل النجاة¹ وكأنها تحثني على ضرورة تقفي أثر خطواتي والانفتاح على الحياة من جديد. ويُقال لك إنّ قراءة كتاب واحد تتجدّد مع تغيير مراحل وعيكٍ وتقدّمك في العمر، لكنّ استدعاءها من الذاكرة قراءةٌ مُغايرةٌ ما كان لي حظٌّ تجربتها إلا مع ظرف نزوح اضطراري. ومع ذلك، تظلّ القراءة الاستدعائية ناقصةً الفصول والأبيات الشعرية والكلمات سوى أنها تترين في انقطاعاتها بتحليلٍ مشوبٍ بوقع اللحظة الحاضرة، تستدعي معها حوارات عن كتب جمععتني بصداقات لطيفة. صداقات ربما لا تكفي سندان ونصف لتشكيلها وخلق

ويبقى الجُلُّ ضرورةً عاجلة. والسواد في سحتهم ليس إلا اختلاط الظلال ببعضها فترة السفر، وتداخلها بحكايا السمر. لذا تجد لديهم النار هي نار القري. وبينما نرح كثيرٌ منا من أماكن نشأتهم إلى الغربية، وجدثني مع الاضطرار لإخلاء المنزل، في آخر يوم للهدنة، أنرح عائدةً إلى الجذور، إلى ود مدني. ومع كلِّ يوم جديد فيها - أستعويض به عن آخر في تاريخي الموشوم بالغربة - أشهد ألواناً للفقد شتى، وألف غربة الجذور. ويعاود كيتس مروّره، يذكرني بفضل تقبّل «القدرة السلبية»، المُصطلح الذي استخدمه الشاعر الإنكليزي لوصف تقبل الغموض والشكوك دون حاجة الوصول إلى يقين، مُعتبراً أنها ضرورية، خاصة حين الإبداع.

بادئ الأمر، ومع غياب الأوراق عني، بثُّ أفثس عن الكلمة فأجدها روتينية في لافتات المحال، ومنسّية على جدران الأبنية المهجورة، وموثّقة لحبِّ عابرٍ على لحاء الشجر، وإذا بها ترث عادات نفوس حجرية تروي قصص من سبقونا، إلى التقاط معنى أن تهجر الأرض ساكنها وتنشغل. تنفض عنها ما علق بها من آثار أيامنا، وترقب ما تحمله لها رياح مصيرها المجهول؛ فأستبدل كلماتي بغيرها من حيوات الآخرين، ويتوالى المحو برغبة الفناء. وها تنقش الطائرة الحربية بهديرها، والقنابل والدانات بدويها، ومضادات الطيران بأزيرها على أفق وجودي، تكتب ذاكرةً مُغايرةً، تحفر فيّ لغة الفقد انفلاقاً،

1 "The gates of hell are open night and day; smooth the descent, and easy is the way". Virgil, *The Aeneid*.

وأعرف من أين لي إدمانها. وأتذكر سهوي عن الكتاب حين أجد صورة فوتوغرافية تُحيلني إلى قراءة لحظة جامدة في الزمن أو رسالة بريدية وردّته من بلادٍ بعيدة يُخبئها بين الصفحات. أحاول تبيّن ما أرسله والدي من خلال الموضوع المطروح وطريقة الرد الواردة هنا، فالكلمة عنده تأمن على ذاتها وسط أخواتها، بينما أفسى أمرها في رسائل الأصدقاء. وإذا تشكّل الطرقات، الأزقة والأنهار بيضاء بيضاء على يدي وأنا أغسلهما بلوح صابون، خرائط لمدنٍ بديلة تسعني في الخيال، تنشغل فيها المسافات بنفسها وتركني في معيّنك. وبينما يجري ماء الصنبور رقيقاً منبهاً إياي بحاجتي إلى الاستعجال، أسمح لتدفّقه بأن يجلو رغوة هذه المدن الفقاعية عن يدي، وأسترسل منزاحةً في الرؤى. 

شيء من الألفة والحنين بين جناباتها، لكنّها الكلمة تجمع بيننا وتمدّ في عمرها إلى ما قبل لحظة التلاقي. واليوم، وحين أضيع في الطريق إلى البيت، أو تفوتني محطة النزول، أتمّم تفاصيل المدينة القديمة في حُلّتها المغتربة من مدّة قريبة بإلقاء بيت شعري لأحدهم، أو بدنندة آخر، أو بضحكة أكثرهم شغباً، فيتضح المسار وأهتدي إلى السبيل. وما من سبيل سوى الاستمرار. فليس للفقْد من نهاية، بل محاولة جديدة بنسيان ما اعتدنا امتلاكه من ذوات متوهّمة في ما مضى. ومع تكوين مكتبة جديدة يُعوّضني بها أخي عن تلك، أتلّمس بذاكرتي خط أبي ينبش ملاحظةً سريعةً بجانب فقره لفتته بينما تمرّ عيناى على صفحات بيّنة لا تشوبها هوامش. وأفتقد الأثر الدائري لفنجان قهوته،



السودان ومحيطه

مجلة تصدر أسبوعياً عن
مركز سودان فاكس للصحافة



نعمل على السودان
من كل مكان

لاستلام نسخة (pdf) من المجلة أسبوعياً

على البريد الإلكتروني،
الرجاء مراسلتنا مرة واحدة على:
atar@sudanfacts.org

على WhatsApp أو Signal،
الرجاء إرسال رسالة تحوي كلمة «أتر» أو «Atar» في التطبيق على الرقم:
+254115438212

للانضمام إلى شبكة مراسلي أتر في السودان الرجاء مراسلتنا على:
atar@sudanfacts.org

لزيرة موقعنا الإلكتروني:
www.atarnetwork.com

 [@atarnetwork](https://www.atarnetwork.com)